الفصل الثاني

(التاريخ والهوية) النص القرآني والثبات والقابلية للاستعمار نقيضان في المواجهة

متى كثر الحديث عن القابلية للاستعمار؟

لا شك أن الإعلام الغربي، وخاصة الأميركي، كرس حملته الإعلامية على أوسع نطاق تمهيداً لغزو العراق. وعندما سقطت بغداد بأيدي تتار العصر الحديث راحت بعض الأبواق تعيد وتكرر صدى الإعلام الأميركي وتستعير مفرداته لتصرخ في وجه الواقع العربي، تدين كل أشكال المقاومة، تدين المقاومة المسلحة في وجه الاحتلال الصهيوني في فلسطين، وتدين المقاومة الرافضة للاحتلال الأميركي.

لم تكن الأحاديث همساً أو على استحياء، إنها جاءت صاخبة فاقعة، تارة تظهر في برنامج تلفزيوني معروف وتارة على صفحات بعض الصحف المأجورة التي تمولها أوساط مشبوهة في بعض البلدان العربية.

كان العنوان الرئيس هو: الأمة تحتاج لاستعمار جديد، لا خلاص للشعوب من الظلم والقهر والديكتاتورية إلا بالترحيب بقوى الاستعمار المعاصرة القادرة عسكرياً واقتصادياً وديمقراطياً على احتلال البلاد العربية وإعادة صياغة الفكر العربي والتربية العربية وإعادة بناء التركيب الاجتماعي والديني، بما يتماشى مع الطبيعة الغربية الفكرية والنفسية والسلوكية والتربوية.

وروجت بعض وسائل الإعلام استفتاءات كانت نتيجتها أن 78 بالمئة من جماهير الأمة توافق على استقدام قوات أجنبية للتخلص من الظلم والقهر والأنظمة الدكتاتورية المحلية. وقد أجري الاستفتاء في وقت لم تظهر بعد حرب الإبادة من قبل القوات الأمريكية بحق الشعب العربي في العراق.

وبعد مرور عام على الاحتلال انقلب كل شيء فجاءت استطلاعات الرأي منقلبة رأساً على عقب وبلغ عدد الرافضين للاستعمار نسبة 92٪ من الشعب العربي الذي راح يذوق أبشع أنواع العذاب والقهر على أيدي قوات الاستعمار الجديد في العراق.

لقد طرحنا سؤالاً يقول: هل للشعب العربي قابلية للاستعمار؟ وقلنا منذ البداية إن العربي تمتع بصفات وسمات نفسية وبيئية لا تتوافق مع القابلية للاستعمار.

ولكننا في إطار الدخول في عدة قضايا يطرح هذا السؤال نفسه كلما لاح لنا في الأفق موضوع يرتبط بالجواب المتوقع والذي يحتاج منا لوقفة هنا ووقفة هناك.

قد لا يكون الجواب جاهزاً هذه المرة، لأن حيثيات كثيرة تدفعنا لتوضيح بعض الأمور التي يحتاجها المرء حتى يقتنع الجميع بأن الأمة ليست ذات قابلية للاستعمار، والمسألة ليست ردة فعل أو مجرد انفعال مهما بلغت الأمور من تشابك وظلامية. المسألة ترتبط بالتاريخ، بالهوية، بالجغرافية، بالبعد النفسي، بالبعد الفكري، والبعد الديني العقيدي، بالبعد الحضاري، بالدور والمسؤولية الإنسانية.

فإذا أردنا أن نعثر على الجواب لابد من وقفة متأنية عند كل بعد من الأبعاد السالفة الذكر.

لقد تحدثنا عن خصائص الشخصية العربية، وما حملته من سمات قبل الإسلام وبعده، ونؤكد هنا أنه لا يختلف اثنان على أن أي شخصية تمتزج في تركيبها وتكوينها هذه الأبعاد، فإذا افتقد أي بعد منها، قيل إن في الشخصية خللاً مستديماً لا يمكن إصلاحه. وإن وُجد خلل يمكن إصلاحه فيحتاج إلى وقت طويل.

وحتى لا تضيق صدورنا أو ينقطع تنفسنا فجأة لثقل ما انهال علينا من أثقال لابد أن تنسل من صدورنا كلمات، نتساءل بها أو نسأل.

1 ـ لو عدنا إلى تاريخنا المكتوب وغير المكتوب، الرسمي والشعبي، ووقفنا فيه عند كافة المفاصل والأوقات العصيبة، والعلامات الفارقة المتميزة، فهل نجد فيه ما يوحي أو يشير إلى قابلية للاستعمار؟.

2 ـ لو عدنا إلى تشخيص هويتنا، على الأقل منذ ألف وأربعمائة سنة، فهل نراها مشروخة متلونة غير أصيلة؟ هل نراها ذات ملامح واضحة أم أنها ذات ملامح مشوشة، يغيب في مظهرها ما هو أصيل أو مزيف.

ولو شاء لنا أن ندرس الجغرافيا، والحدود، الممرات المائية، البحار المحيطة، المناخ الصحراوي، فهل كانت هذه الجغرافيا ذات قابلية للاستعمار والاحتلال، أم أن الله خلقها لتناسب شعبها، وتصبح جزءاً من ملامحه وسماته.

أما في البعد النفسي، فإن مجموعة كبيرة من القيم التي لا تُعد ولا تحصى، تحكم الإنسان العربي وتوجهه نحو العزة والكرامة والأنفة. وكانت وما تزال ثوابت ملتصقة بطبيعة هذه النفسية فلا مكان للذل أو الخنوع أو الإحجام عن الإقدام. فالطعن في الصدور وليس في الظهور ومناصرة المظلوم وليس التخلي عنه لنهش الظالمين الذئاب. فمتى تخلت هذه الشخصية عن هذه القيم؟ متى بدلت الإقدام بالإحجام. متى استعانت بالآخرين على حياتها ومتى قبلت أن تنصاع لغازٍ يرطن بالأعجمية الرومية أو الفارسية أو غيرهما؟

وكذا في البعد الحضاري قبل الإسلام وبعد الإسلام. بنى الإنسان حضارته وجاء الغزاة يدمرونها، فما كانت بابل وماري وأوغاريت والقدس وأريحا ترفع عمرانها لتكون قابلة للاستعمار، وتفتح مدنها وحصونها للغزاة، ويخرج أبناؤها منها إلى متاهات الصحارى والقفار.

وما إن حل الإسلام في ربوع هذه الأرض العربية الفسيحة حتى ارتفعت قيم الحضارة لتعجن كل ما هو إيجابي بتراب الأرض وصخورها. وتشيد صروح العزة الإنسانية والمنعة والتحصين من أي أطماع أو طامعين، فهل قبلت الحضارة العربية أن تستقبل الغزاة، وتفرش لهم دروب المدن والقرى والمفاوز بالورود ليدخلوا البلاد محتلين غازين؟ هل بُنيت الحضارة العربية الإسلامية على أساس القابلية للاستعمار والغزو من قبل التتار والصليبيين والإفرنج؟ نعتقد أن أي إنسان عاقل يدرك أن التناقض والتنافر هو الأساس بين غايات بناء الحضارة وبين القابلية للاستعمار.

وعندما نقترب من دراسة العقيدة الإسلامية، نكاد نصعق من تلك الحدود التي وضعها القرآن الكريم لأنها الأكثر رفضاً لكل أشكال الذل والاستكانة، والأكثر دفعاً للحفاظ على شخصية الأمة وهويتها، فنحن أمة أعزها الله بالإسلام، ومن اعتز بغير الله ذل.

نكاد نتوقف ونحجم عن المقاربة والأسئلة التي نطرحها ونحن نتحدث عن البعد الحضاري أو البعد التاريخي أو غيرهما من الأبعاد. ففي جوهر العقيدة بناء ينهدم إذا حاولنا سلخ مفهوم الجهاد، فكيف نسأل هل في عقيدتنا قابلية للاستعمار؟.

هل بُعث الرسول محمد، ﷺ، ليحمل السيف ويقاتل؟

هل كانت مهمته تنحصر في افتعال العداوات وتأجيج نار الحروب وإجبار الناس على اعتناق دين الإسلام؟

بعث محمد ﷺ نبياً وهو في بلده مكة. دعا قومه للدين الجديد فلاقى ما لاقى. مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً استخدم لغة الدعوة واللين كما علمه إياها ربه. عُذب وأهين ولوحق وما تركوا باباً من أبواب الظلم إلا دخلوا به عليه. وكان يرد عليهم باللين والمحبة والتسامح.

وهاجر إلى المدينة، وهاجر معه المستضعفون من المسلمين. وظل أذى قريش يلاحقه وتذمر المسلمون وأرادوا قتال هؤلاء الظالمين. وكان الرسول الكريم ﷺ يصبّرهم. ويمنعهم من أي تحرك مضاد حتى يأذن الله.

وعندما أمر الله سبحانه المسلمين بالجهاد والقتال بيّن سبحانه الأسباب التي دعت إليه فهم قد ظُلموا وأخرجوا من ديارهم وعُذبوا وأهينوا.

يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: 39 ـ 40).

بعد صبر على كل العذابات النفسية والجسدية نزل حكم الله بالدفاع عن النفس وردع الظالمين وهذه هي سنة الحياة. سنة التدافع بين الحق والباطل حتى يظل في الأرض من يوحد الله ويقيم الدين ولو كره الكافرون.

فهل شُرّع الجهاد لقتل الناس والفتك بهم؟

نوجه السؤال للذين يحاولون أن ينالوا من شريعة هذا الدين من مستشرقين ومتغربين ودعاة القابلية للاستعمار. إذاً عودوا إلى النصوص القرآنية راجعوها وادرسوا

أسباب نزولها كي تـدركوا أن الله مـا شرع الجهـاد إلا لـسببين اثنـين، الأول، نـشر كلمـة التوحيد. ودفع العدوان الخارجي ومنعه من الاحتلال وهتك الأعراض وإذلال الأمة.

ولو كان الإسلام دين تنازل عن الحقوق ودين خنوع وقبول بالذل والظلـم لكـان مفهوم القابلية للاستعمار أمراً مقبولاً وطبيعياً. لكن الـدين الإسـلامي يريـد للبـشرية أن تستقيم حياتها وعلاقاتها. وأن يقف بنو البشرية عند حدود لا يتعدونها. وإلا لكان الفتـك بالنفوس والظلم والعدوان شريعة غابٍ لا أحد يعلم مدى سوئها وآثارهـا الـسلبية عـلى بني البشر والأرض.

في كل فتوحات المسلمين لم يكن الهدف قتل الناس وإخراجهم من ديارهم. ولدينا من الوثائق التاريخية ما يؤكد ذلك. كان دومـاً في عقـل المـسلم أولاً الـدعوة إلى التوحيـد ودين الإسلام. وفي كل معركة منذ بدء الدعوة وحتى اليوم كانت العلاقـات مـع الـدول والقوى غير المسلمة تبدأ بالحوار. وكان أول بند فيه الدعوة لـدين التوحيـد وتـرك عبـادة الأصنام والأشخاص. وكل من استجاب لهذا النداء وأسلم أصبح جزءاً مـن هـذه الأمـة مثله مثل أي مسلم سبق إلى تلبية الدعوة. ومن آثر الجزية ـ وهي بمثابة الزكاة على المـسلمين ـ فقد حُقن دمه وتُرك ودينه لأن قاعدة الإسلام الأولى تقول: لا إكراه في الـدين. وإن أراد البغي والاستهتار والعدوان والظلم حُورب حتى يرجع إلى جادة الصواب.

لقد أذن الله للمسلم أن يقاتل، لكن هناك أسباباً شرعية منطقية لهذا القتال. فإضافة لنشر الدعوة وردع العدوان شرع الله القتال في سبيل حماية الضعفاء من النـساء والولـدان والعاجزين الذين يتهددهم الغزاة بالقتل والإبادة.

يقول تعـالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: 75).

فهناك قتال دفاعاً عن المستضعفين وليس دفاعاً عن الظالمين والمستغلين. هناك دفاع عن الرجال الذين لا حول لهم ولا قوة ضعفاء في كـل شيء، وهنـاك نـساء مستـضعفات وهناك أطفال. جميعهم يحتاجون لمن يحميهم من القتل والسلب والاستعباد.

لم يحض الإسلام على القتال من أجل عرض الدنيا من مال وزينة واستئثار. فلماذا يقاتل المستعمرون؟ هل يقاتلون دفاعاً عن الضعفاء أم أنهم أول ما يقتلون هؤلاء الضعفاء؟ أيقاتلون من أجل نشر القيم أم أنهم يقاتلون لاستلاب خيرات الشعوب ونشر الإباحية والفساد؟ فهناك قابلية متأصلة للعدوان والعنصرية والإبادة البشرية. وفي الإسلام قابلية متأصلة للدفاع عن القيم والقتال في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

ولو كان لهذه الأمة القابلية للاستعمار لما شرع الله القتال والجهاد وحدد غاياته ومراميه. والأمر الطبيعي والفطري في الإنسان أن يدفع عن بيته ووطنه ودينه العدوان. وإلا لكان الباب مفتوحاً مشرعاً للإفساد الاستعماري. ولعمّت شريعة الغاب. وانقسم أهل الأرض إلى أسياد وعبيد ولا ثالث لهما.

إن الجهاد يتضمن معنى واسعاً يتعدى ساحات القتال، فيشمل كل جهد صادق ومستمر لإزالة الفساد في الأرض والعمل بأنواعه ضد الظالمين والفاسدين. وضد كل من يقف في طريق الإنسان نحو أهدافه السامية. وفي هذا الإطار لابد أن يسأل سائل:

ما هو موقف الإسلام من الجهاد في عصرنا الحالي؟

إذا نظرنا إلى واقعنا نرى أن الأمة انقسمت إلى دويلات، وتشرذمت وتمزقت. وهوجمت من قبل أعدائها واحتلت أراضيها في فلسطين والعراق احتلالاً مباشراً. واحتلت بقية بعض الأجزاء الأخرى احتلالاً اقتصادياً وفكرياً. وظن بعض ضيقي الأفق أن الأمة قابلة للاستعمار وراضية عنه.

فإذا كانت الأمة ليست راضية عن هذا الاستعمار أو ذاك، فهل على المسلمين أن يجاهدوا لإعادة بناء دار الإسلام على أساس الحضارة الحرفية التي كانت سائدة في قرون خلت؟

والواقع، أن المسلم ما دام مسلماً مؤمناً فهو ملزم بالجهاد المتناسب هدفه مع الظروف التي يواجهها. لأنه لا يمكن أن يخضع للعدوان وفي قلبه ذرة إيمان. كما لا يمكن أن يكون تابعاً ذليلاً تحت نير الاستعمار بكل أشكاله. وينفذ رغبات الأعداء ويساعدهم

في مؤامراتهم على إخوته أو على أي إنسان مستضعف ما لم يخرج من الإسلام ويصبح عدواً له.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139)

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (محمد: 35).

فهذا الدستور الرافض للاستعمار يشكل الأسباب الموجبة لطريق جهاد المسلمين في أي معركة من أرض العرب والإسلام كجزء من الجهاد العام ضد كل أشكال الظلم والفساد والتعسف.

أي هي القابلية للاستعمار والله سبحانه يقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 173).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: 41 ـ 42).

إذاً، فالمعتدي على دار الإسلام هو من كل الأوجه نظام قهر عالمي يشبه تماماً النظام العبودي العالمي الذي جابهه الإسلام وهدمه من أسسه في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه.

ودستور الدين يحتم على الفرد حماية الجماعة الإسلامية. كما يحتم حماية الجماعة للفرد، ولا بديل للجماعة من أن ترد للإنسانية دينها وأن تجاهد لإزالة الفساد في الأرض قبل وصول أذاه إليها أو بعده على الأقل.

لقد تناسى مروجو مقولة القابلية للاستعمار أن الجهاد هو من أجل الإنسان، من أجل إزالة الفساد في الأرض، وهو يعبر عن الأكثرية الساحقة من الموحدين المسلمين ولا يعبر مفهوم القابلية للاستعمار إلا عن شرذمة قليلة جداً ارتبطت بالاستعمار والمفسدين ارتباطاً عميلاً مقابل حفنة من الدولارات.

التاريخ كما صنعناه:

لو عدنا إلى الوراء وجمعنا ما دُون لنا من تاريخنا نقف مندهشين أمام الكم الهائل من المصنفات والكتب التي سطرها المستشرقون. كتبوا التاريخ بما تمليه عليه عقائدهم

وقومياتهم وأهواؤهم. وانتشرت هذه المصنفات والكتب في جامعاتنا ومعاهدنا. وأصبحت المراجع الأساسية التي نستند إليها في علمنا التاريخي ورؤيتنا للماضي والعلاقات الاجتماعية وغيرها. وعندما ننظر في ما صنفه مؤرخونا نقف مذهولين أمام الفروق بين ما كتبوه وبين ما كتبه هؤلاء المستشرقون.

لقد أرادوا تشويه الشخصية العربية، وتشويه الدين الحنيف وشخصية النبي ﷺ ولم يسلم تاريخنا من الدس، ولم تسلم عقيدتنا من التشويه والتشهير بها. فالتاريخ كما صنعناه على الحقيقة يقول لنا لا قابلية للاستعمار.

يقول المستشرق أوليري: إن العربي الذي يعد مثلاً أو أنموذجاً هو مادي ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة. ولا يقوِّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع، يتملك الطمع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف. لا يميل كثيراً إلى دين، لا يكترث بشيء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية[8].

ويقول المستشرق لامانس: إن العربي نموذج الديمقراطية، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حريته ولو كانت في مصلحته. وهي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء من تاريخ العرب[9].

وكم من الأقوال سمعناها من غولدزيهر ونولدكه وبروكلمان، يُدس فيها السم الزعاف. وتنطلي على بعضنا أقوالهم ونتخذها أنموذجاً ولا نصدق غيرها.

لقد قسموا التاريخ حسب ما يريدون وجعلوا ميلاد المسيح عليه السلام الفاصل بين تاريخ وتاريخ ونحن نرى أن التاريخ ينقسم إلى ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام. ولسنا ملزمين بالتقيد بما صنعه الغربيون من تواريخ ليس لنا علاقة بها.

وإذا كان ثمة احتجاج على تمثيل التاريخ للسلطة دون الشعب ـ بمعنى أن تاريخنا كان تاريخ ملوك وسلاطين وليس تاريخ جموع الشعب ـ فإن لدينا من الوقائع والشخصيات ما لم يرضِ السلاطين والملوك وأصحاب النفوذ.

ومن جهة أخرى فإن مفاصل التاريخ وعلاماته البارزة لم تكن تكريساً لحكم حاكم أو مُلك ملك، إنما كانت تكريساً لمجموع الناس قادة وجنوداً، رجال علم وحكمة ودين

ومعتقدات، ومن تمثل المعارك الفاصلة التي أشرنا إليها سابقاً؟ ألا تمثل جموع المسلمين؟ من أبسط مجاهد إلى أكبر قائد؟

وما بالنا ونحن نقرأ تشريعات حمورابي ونصوص أوغاريت وقوانين إيبله وماري وحضارات العرب القديمة كلها. لقد حفظ تاريخنا قبل الإسلام قفزات إنسانية فكرية دينية كانت جديرة أن تدخل التاريخ من أوسع أبوابه.

أما إذا أردنا أن نقرأ تاريخنا الصحيح بعد ظهور الإسلام فإننا ملزمون إلى الرجوع لنصوص القرآن الكريم الذي تحدث عن علاقة الأمة بشتى أنواع الظالمين والفاسدين من مشركين ومنافقين ومحرّفين وغوغائيين. وتحدث ضمن قوانين ثابتة عن طريقتنا المفترضة للتعامل مع كل أشكال التوجهات البشرية إن كانت سلمية أو عدوانية. ألم يتحدث القرآن الكريم عن ظلم المشركين للنبي محمد ﷺ وهو في مكة؟ ألم يكن لمواقع بدر والأحزاب وحنين وخيبر مكان واسع من كتاب الله؟

نعم لقد أرّخ القرآن الكريم لحياة كاملة عاشها المسلمون في مواجهة الضالين والغزاة والمعتدين على الرغم من أن هذا الكتاب العظيم ليس كتاباً تاريخياً ولا تدويناً يدونه البشر لأنه من صنع بشر!.

لقد جاء تدوين الوقائع الإسلامية في القرآن الكريم، ليس لأجل الحديث عما جرى، إنما جاء ليكرس مسائل في غاية الدقة والخطورة، فالحديث عن أي مفصل من مفاصل الدعوة كان وما يزال يؤكد على قوانين الحياة، وهو دفع الظلم ومحاربة المعتدي وعدم الاستكانة له مهما كانت قوته، ومهما بلغ من الجبروت والطغيان.

ولو كان تحقيق المصلحة يرتبط بأمور الدنيا المالية والاستعمارية لوجدنا ـ وهذا افتراض ـ أن صاحب الدعوة وكذلك المسلمين ـ قد استعانوا أو استأجروا الأعراف بالمال لدفع المعتدي ورد ظلمه أو للاستئثار بماله وممتلكاته.

من يدفع الظلم غير من وقع عليه؟ فهو المسؤول الأول والأخير في المعركة الحاسمة ضد الطغيان والظلم والجبروت. ولو كانت لدى المسلمين قابلية للاستعمار والاستعباد لما هجروا مكة إلى يثرب على بعد خمسمائة كيلو متراً من مكة. ولو كان لديهم قابلية للاستعباد

لظلوا في كنف قريش وزعمائها في مكة والطائف وغيرهما، ولو كانت لديهم قابلية للاستعمار والاستعباد لما حاربوا قريشاً والمشركين على مدى السنين ولما حاربوا اليهود الربويين الفاسدين المتسلطين. وهو قتال ضد البغي والباغين وهو قتال ضد من يقطع السبيل ويدعو للعدوان والافتراء والنفاق.

وحدد الأطراف التي يجب قتالها. فالقتال موجه ضد الذين يقاتلون الأمة من أعدائها وموجه ضد أئمة الكفر والطغيان. وموجه ضد أولياء الشيطان وضد المشركين الذين ينشرون عقائد التخلف والوثنية والجهل وانحراف البشرية.

يقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ (سورة البقرة: 190).

ويقول تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ (سورة التوبة: 12).

ويقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (سورة البقرة: 193).

وهكذا نزل القرآن الكريم ليؤسس لطريقة التعامل مع الأعداء على شتى مراتبهم وسماتهم. ولذلك كان التاريخ الإسلامي ينبني على أسس عقدية. وجاءت وقائع الأحداث في زمن رسول الله ﷺ ومن وليه من الخلفاء الراشدين والسلف الصالح لتؤكد أن لا قابلية للاستعمار ولا حتى للتصالح مع تلك الأصناف من المعتدين، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالرضوخ وقبول الأعداء كحاكمين للأمة ومتسلطين على الأرض؟.

وإذا اخترقنا الوقت، ولخصنا تاريخ الأمة في الأوقات الأخرى وصولاً إلى التاريخ الحديث لم نجد في عصر الأمويين والعباسيين وما تلاهم من سلاجقة وأيوبيين ومماليك ما يوحي لقابلية الأمة للاستعمار والاستعانة بملل الكفر على ملة الإيمان.

والأمة حين تعرضت لبعض الخروقات من بعض السلاطين، وقفت موقف المدافع المقاتل في سبيل الحفاظ على الهوية والشخصية والأرض والحدود والمقدسات.

وقد لخصت المعارك مع الإفرنج والتتار موقف الأمة في أحلك ظروفها. وظلت تستند إلى مبادئها الأساسية التي رسخها الإسلام في التعامل مع الغزاة والمستعمرين.

فإذا كانت بعض الفئات ترى في جلب الاستعمار لبلادها خلاصاً من تظالم الناس فيها فإن المعادلة تصبح أشد وطأة على تاريخ الأمة وحياتها.

الهوية والاختيار

وحتى لا نُفهم أننا عنصريون وندعو للتميز والأفضلية، نرى إن هويتنا العربية الإسلامية تحدد ملامحنا التاريخية والفكرية والعقدية مثلما كل هوية تحدد ملامح أي شعب وأي أمة.

وعندما نطرح مسألة الهوية والاختيار فلا يعني أننا عنصريون أفضل من البشر. فنحن لسنا شعب الله المختار.. إنما الذي رسم ملامحنا وشخصيتنا ذلك البعد القرآني الذي وضحته الآيات الكريمة في جميع أبعاده الإنسانية العالمية.

وحتى لا يُظن أننا نتماثل مع بني إسرائيل من حيث ظنهم أن الله فضلهم بالمطلق على العالمين وحتى لا نقع تحت دائرة الشبهة والاتهام فإننا نوضح معنى الهوية والاختيار من خلال قوله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج: 78).

فقد حددت الآية الكريمة هذه الهوية. وهذا التحديد لم يكن وليد قرن أو قرنين من الزمان فهو يمتد إلى تاريخ أبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، وهذه الهوية امتلكت من الأسس والسمات الكثير، فهي ذات خصائص محددة، وهي أيضاً ذات دور إنساني واضح، وتبين هذه الخصائص أن الهوية هنا فوق الاعتبارات العرقية وفوق القوميات المغلقة، هي مفتوحة لكل من يتمثلها ويقتنع بها. وفي هذا دور حقيقي لعالمية هذه الهوية، دون أي نظرة عنصرية.

وقد كان للعرب شرف حمل الرسالة الإنسانية مع اعتناقهم للدين الإسلامي، بيد أن هذا الشرف لا يلغي شرف الانتساب لهذه الأمة في إطارها الإنساني العالمي. وهذا ما

جعل ملامح الهوية أكثر رسوخاً في الأرض العربية، وأكثر اندماجاً بالشخصية التي نبتت في هذه الأرض.

وحتى يترسخ الانتماء في روح الإنسان العربي من أن هذه الهوية اختيار رباني لم يقتصر ذكر القرآن على الارتباط بينهما وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، بل ركز عليه أكثر فأكثر حينما تحدث عن النبي محمد ﷺ في حجة الوداع.

فقد جاء قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة: 3).

لقد ارتضى الله سبحانه عقيدة هذه الأمة. وهي لا تنفصل مطلقاً عن الهوية، فإذا تجردت الأمة من هذه الهوية تكون قد فقدت مبرر انتمائها وملامح شخصيتها التي تكونت عبر مئات القرون.

إننا حين نحلل مكونات هذه الهوية نراها عقيدة ومعتقدات، نراها فكراً وثقافة تراكمية ونوعية، نراها أيضاً تاريخاً ووقائع. وكل هذه المكونات تتناقض كلياً مع مقولة قابلية الأمة للاستعمار.

فإذا كنا نشهد اليوم بعض مظاهر هذه القابلية لدى بعض أشكال النظم السياسية فإن ذلك يعني أن علينا الاعتراف المر بأن انحرافاً عن مكونات الهوية قد ظهر، بل إن هناك تخلياً واضحاً عن هذه المكونات. بمعنى آخر، فإن ما نشهده اليوم من قبول صارخ للاستعمار الأجنبي على أرض العروبة والإسلام من قبل بعض الأنظمة ليس معناه أن الخلل يقع في الهوية ومكوناتها، إنما يقع فيمن أبوا الرجوع إلى أصول الهوية في بعديها العقدي والتاريخي، وأبوا إلا أن يكونوا رافضين لهويتهم التي لم تتكون إلا بعد أن قدمت الأمة عبر مئات السنين التضحيات والرسالات والنبوات والأفكار والفلسفات والإبداعات على شتى أشكالها وأجناسها المادية والمعنوية.

ولعل الأغرب في هذا أن بعض المفكرين والمتفلسفين يقيسون الأمة والقابلية للاستعمار بمقياس ما آلت إليه أوضاع النظام العربي السياسي، متناسين أن التاريخ يمشي ولا يتوقف ويطوي كل يوم وكل ساعة مخلوقات الأرض من بشر وغير بشر. ومتناسين

أن حالة النظام العربي وكذلك الإسلام المعاصرة شاذة ولا يقاس عليها، لأنها حالة التمزق والفواصل بين إرادة الشعوب وطموحاتها، وإرادة الأنظمة التي تناست رحم أمها وانتماءاتها العقدية والتاريخية، وظنت أن اللحاق بالقطب الأميركي المتوحش أفضل بكثير من الدور الرسالي الذي حددته العروبة والإسلام وظنت أن الحرية بالمفهوم العربي أفضل بكثير من الحرية التي منحتها مكونات العروبة والإسلام.

إن إشكالاً يقع الآن في أذهان بعضنا مرده سؤال يقول: هل نحن نفتقد للهوية أم أن الهوية تفتقدنا؟

وجوهر الجواب يقول: إن الهوية موجودة ثابتة مبادئها إن رضينا أو أبينا. فنحن من عمق الرسالة والتاريخ والجغرافيا، ومن عمق العقيدة والحضارة. لنا لغتنا الواحدة، لنا تاريخنا ووقائعنا. ولنا شخصياتنا ورسالتنا هي موجودة ولا أحد يستطيع أن يمحو وجودها.

إن المشكلة اليوم تتجسد في أفكار تحريفية تريد أن ترفض الهوية العربية الإسلامية وتستبدلها بهوية أخرى علّها تدخل بوابة العالم الغربي ظناً منها أن سعادة الدنيا تنحصر في الفردية والرأسمالية الديمقراطية الحرة. وما هي إلا معجونة بتكنولوجيا الجبروت والطغيان والقطب الواحد. ولذلك تدعو لاستعمار جديد للوطن والأرض محاولة تغيير هويته ونسف عقيدته ومسخ تاريخه وشتم رجالاته وأنبيائه وقادته وشهدائه.

لنكن غير خادعين أو مخدوعين، ولنكن لمرة واحدة نمتلك الجرأة ونقول قولة الحق، لقد تغافلنا عن سقطات بعضنا، وتسامحنا حفاظاً على الحد الأدنى من التضامن بيننا، ولكن عندما وصلت السكين إلى العنق ما عاد لنا من سبيل لنتغافل أو نتسامح.

فما يطرحه بعض المنحرفين حول قابلية الأمة للاستعمار لا ينطلق إلا من موقف ساقط حاقد على هوية الأمة وعقيدتها وتاريخها وإبداعها الحضاري والفني والفكري.

ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء الذين يروجون لمثل هذه المقولة الخطيرة هم أول من يكونون ضحاياها، لأن العقلية الاستعمارية لا تحترم العملاء والخارجين عن أمتهم. ولنا من الشواهد الكثير، وجميعها يؤكد أن الاستعمار بكل وجوهه القميئة والوحشية لا يحترم

إلا من يحترم هويته ويعتز بعقيدته ويفتخر بتاريخه، ولا يحترم إلا القوي الذي يـدافع عـن موقعه الإنساني الحضاري ولو أدى دفاعه إلى استشهاده دون ذلك.

الإسلام والقابلية للاستعمار: نقيضان في المواجهة

كيف يريدون الإسلام؟

كيف يريد الإسلام نفسه؟

ما بين هذا وذاك زمن لا يتناهى، ومكان ليس في حدود المكان. مـا بـين هـذا وذاك كما بين صنعة الإنسان، وصنعه الرحمن.

أليست مهزلة وسخفاً أن يفكر بعضهم بتفصيل عقيدة للآخرين؟ أليس من الغبـاء أن يأتي بعضهم ليستبدل فلسفة وضعية مغرضة وعنصرية بدستور إلهي؟ أليس من الحمق أن يجعلوا القابلية للاستعمار جوهر الإسلام الذي يفصلونه؟

ليس غريباً في هذا العصر أن يفكر أعـداء الأمـة فعـلاً باسـتحداث إسـلام جديـد يتناسب مع القبول بالطغيان والجبروت والتسلط على رقاب الأمم والـشعوب. وجهلـوا تماماً أن الإسلام عقيدة إلهية، اختارها الله لهذه الأمة كي تكون أمـة وسـطاً وشـاهدة عـلى الناس.

لقد فعلوا ويفعلون كـل مـا بوسـعهم لحـرف العقائـد عـن مـسارها. وأخـضعوا نصوصهم الدينية للتأويل السياسي والفكري والعنصري. فصنعوا لأنفسهم عقائد مغايرة ومعتقدات يُلوى عنقها ليركبوها دون أي اعتبار لجوهر مفاهيم الحرية والعدل والمساواة. وظنوا أن الإسلام قابل للتغيير والتبديل، فبادروا إلى تـصنيع إسـلام جديـد في مختـبراتهم الفكرية ومخابراتهم العنصرية.

يطرح بعض الغربيين مقولات تدفعنا لهذا الحديث الذي لا يخلو من الرد العـاطفي أحياناً والذي يجعلنا مشككين في النوايا الغربية التي تظهر الحرص عـلى الحـوار والتفـاهم بينما بعض أوساط الغرب تعمل على تدمير الإسلام والمسلمين.

لماذا تأخذون ـ أيها المسلمون ـ بالنص القرآني كله. فلتأخذوا من هنا وتتركـوا هنـا حتى تكون عصريين.

لماذا تتمسكون بنصوص الجهاد والعصر لا يحتمل هذا الجهاد؟

لماذا تتشددون في العداء لليهود والعصر لا يحتمل التشدد تجاه أحد؟.

ليكن قرآنكم خالياً من الجهاد. خالياً من الحديث عن بني إسرائيل واليهود. لا تربوا أبناءكم على العنف والإرهاب والتصادم مع الآخرين. غيروا مناهج التربية والتعليم أبعدوا عن صفحات التاريخ كل ما يدفع باتجاه الصراع مع الأمم الأخرى وخاصة اليهود وأمم الغرب. لقد مضى ما مضى، فاقلبوا الصفحات عن الحروب الصليبية وانسوا المجازر التي ارتكبت في القدس. وانسوا محاكم التفتيش وغيرها وغيرها.

بهذه المطالب يريدون أن يكون الإسلام، وإن تعجب المسلمين فليلغ الإسلام وليصبح الوطن العربي على دين جديد ومعتقدات جديدة.

وبسبب من هذه المطالب وغيرها كان لابد من المواجهة، فنحن لا ندافع عن إسلامنا ونحن خائفون، ولسنا متهمين حتى نختبئ وراء الستائر السود، ونستجدي الآخرين ليرحمونا ويبقوا على حياتنا.

وإذا كانت تتمظهر هنا وهناك دوافع الهروب والدفاع الضعيف عن أمتنا فليس يعني ذلك أن الذين يتهربون من التصدي القوي والهجوم الفكري المضاد يمثلون هذه الأمة.

فالذي يمثل أمة الإسلام القرآن العظيم الذي حفظ لها هويتها ودورها الإنساني الكبير. ولعل أهم ما في ذلك أن هذا القرآن بما فيه من رؤية متكاملة للكون والوجود والعلاقات الإنسانية يتناقض كلياً مع القول بالقابلية للاستعمار.

النص القرآني لا يغيره إلا قائله. وهو ثابت ما دام الوجود، ومن العجب العجاب أن تزهد الأمة بنص إلهي يرفض الاستعباد والقهر والظلم. ويرفض أن تذل الأمة من قبل عدو غضب الله عليه وليس له هدف سوى إفناء الأمة أو تدمير قيمها وحضارتها ودورها الرسالي.

لقد حاول الكثيرون من أعداء الإسلام منذ نزول القرآن حتى اليوم أن يغيروا في النصوص القرآنية أو يحذفوا بعضها فهل استطاعوا؟

فثبات النص القرآني أمر خارج عن طاقة وإمكانيات العقل البشري فهو كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (سورة الحجر: 9).

وما كان باستطاعة أحد أن يزيد أو ينقص كلمة في النص القرآني. فهو فوق كل مخلوق وهو منزل من الأعلى إلى الأسفل وليس بمقدور أحد أن يجعله يصعد من الأسفل إلى الأعلى.

يقول تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: 16).

فإذا كان محمد ﷺ لا يستطيع تبديله وهو المنزل عليه فكيف يبدله بقية البشر؟

لهذا كان ثبات النص القرآني ولسنا بحاجة لتكرار ما قاله العلماء والدارسون بشأن ثبات هذا النص وعدم تناقضه مع التطور العلمي والاجتماعي لبني البشر.

كتاب غربي يطلقون عليه قرآن المسلمين:

كان من المفترض أن نطرح هنا استكمالاً لما طرحناه من ثبات النص القرآني ومن ثم نتابع الحديث عن كيفية طرح القرآن الكريم لعدم التوافق بين أمة الإسلام والقابلية للاستعمار. ولكن ما طرحه بعض الغربيين على أحد مواقع الإنترنت جعلنا نتمهل قليلاً لنرى كيف يتصورون القرآن المناسب لأمة الإسلام على ضوء الحملة الشرسة التي يتعرض لها المسلمون بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

وجاء في ترويسة هذا الكتاب ما يلي:

Get Private, free E-mailfrom MSN Hot mail at http: //www. Hotmail.com

وقد نشر فيه ما يدعيه أربع سور: سورة الإيمان، سورة المسلمون، سورة التجسد، سورة الوصايا.

وجاء في ما يسميه سورة الإيمان:

[واذكر في الكتاب الحواريين إذ عصفت الرياح بهم ليلاً وهم يبحرون (1) إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي فقالوا أهو ربنا يهزأ بنا أم قد مسّنا ضرب من جنون (2) فجاءهم صوت المعلم أن لا تخافوا إني أنا هو أفلا تبصرون (3) فهتف هاتف

منهم يقول ربي مرني إن كنت حقاً هو ذا أنا آتي على المياه إليك عسى أن يبدل الله شكي بيقيني (4) قال فاسعَ إلي ولتكن للناس آية لعلهم يتذكرون (5) وإذ طفق الحواري يمشي رأى شدة الريح فخاف وبدأ يغرق فصاح بربه يستعين (6) فمدّ بيمينه له فأخذه بها وقال يا قليل الإيمان هذا جزاء الممترين (7) وإذ ركب السفينة معه سكنت الرياح لتوّها فسبّح الحواريون بحمده وهتفوا له قائلين (8) أنت هو ابن الله حقاً بك نحن آمنا وأمامك نخر ساجدين (9) قال طوبى للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشك فأولئك هم المفلحون(10)].

أما ما جاء فيما يسمى سورة المسلمون:

[الصم (1) قل يا أيها المسلمون إنكم لفي ضلال بعيد (2) إن الذين كفروا بالله ومسيحه لهم في الآخرة نار جهنم وعذاب شديد (3) وجوه يومئذ صاغرة مكفهرة تلتمس عفو الله والله يفعل ما يريد (4) يوم يقول الرحمن يا عبادي قد أنعمت على الذين من قبلكم بالهدى منزلاً في التوراة والإنجيل (5) فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلت وتضلوا سواء السبيل (6) قالوا ربنا ما ضللنا أنفسنا بل أضلنا من ادعى أنه من المرسلين (7) وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم من الكافرين (8) قال ربي إنما أغواني الشيطان إنه لبني آدم أعظم المفسدين (9) ويغفر الله للذين تابوا ممن أغواهم الإنسان ويبعث بالذي كان للشيطان نصيراً إلى جهنم وبئس المصير (10) وإن قضى الله أمراً فإنه أعلم بما قضى وهو على كل شيء قدير(11)].

فما كتبه هذا المغرض لا يحتاج لشرح لأنه يشرح نفسه بنفسه، إنما ما كتبه يدل على حقد كبير على شخصية رسول الله ﷺ.

ولننظر فيما يسميه سورة الوصايا فهو أخطر مما نتصور:

سورة الوصايا: [ألمن (1) إنا أرسلناك للعالمين مبشراً ونذيراً (2) تقضي بما يخطر بفكرك وتدبر الأمور تدبيراً (3) فمن عمل بما رأيت فلنفسه ومن لم يعمل فلسوف يلقى على يديك جزاء مريراً (4) إنا أعطينا موسى من قبلك من الوصايا عشرة ونعطيك عشرات أخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء وجعلناك عليهم أميراً (5) فانسخ ما لك أن

تنسخ مما أمرناهم به فقد سمحنا لك أن تجري على قراراتنا تغييراً (6) قل لعبادي الذين آمنوا إن تثاءبوا يستعيذوا بالرحمن أن لا يضحك منهم الشيطان وليكبروا الله إن عطسوا تكبيراً (7) وأن لا يقتنوا في بيوتهم كلباً ولا يضعوا على حيطانهم تصويراً (8) وإذا أرادوا انتعالاً فليبدأوا باليمين قبل الشمال وإن لم يفعلوا فقد اقترفوا ذنباً كبيراً (9) وإن تبرزوا فليمسحوا مؤخراتهم بحجار ثلاثة وينتهوا عن الروث إذ قد جعلناه للجن غذاء وعلى المؤمنين أمراً محظوراً (10) قل لعبادي الذين آمنوا يغزوا من أرادوا ويقتلوا من أجل رزقهم ومن لم يغز منهم أو لم يحدث نفسه بغزو مات منافقاً منكوراً (11) وللذين يخشون سحراً يأكلوا سبع عجوات ينجيهم الله من السحر ويبعد عنهم شراً مستطيراً (12) قل لعبادي إن أرادوا أن يحلفوا فليحلفوا بالله ولا يخافوا تبذيراً (13) وأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع أو ما ملكت أيمانهم إنا جعلنا لهم الدين أمراً ميسوراً (14) وإذا فرغت من بين يديك الوصايا فاطلب إليك جبريل يأتيك ساعياً مأموراً (15) وإن شغل جبريل عنك فعليك بورقة بن نوفل واستفد منه قبل أن نتوفاه فيصبح الوحي عليك أمراً عسيراً (16)].

وفي الهجوم ذاته على الإسلام نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية دراسة زعم صاحبها المدعو كريستين لوكسنبرغ أنه من علماء جامعة برلين الألمانية.

هذه الدراسة التي يزعم صاحبها أنه أجراها وتوصل فيها إلى القول إن القرآن لم ينزل بالعربية إنما نزل بالآرامية، وأنه مجرد كتاب لتفسير وشرح الكتب المقدسة السابقة عليه، وأن محمداً (ﷺ) ليس رسولاً أو نبياً إنما هو عربي تنصّر والتف حوله عدد من النصارى الجدد في الجزيرة العربية كما أنكر وجود الحور العين.

وقد ذكرت وسائل الإعلام الصهيونية أن هذه الدراسة أفضل ما جاء خلال المائة عام الأخيرة ومن شأنها هدم الإسلام من أساسه. مما جعل بعض المسلمين الجدد في أوروبا وغيرها يتهافتون على المراكز الإسلامية لطلب التفسير المناسب.

وقد رد على هذه الادعاءات الدكتور علي عبد العال ربيع، أستاذ الأديان والمذاهب المساعد بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

كما رد على هذه الافتراءات الدكتور عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في جامعة الأزهر.

وساهم في الرد أيضاً الدكتور عبد العظيم المطعني، أستاذ البلاغة، والنقد بجامعة الأزهر وفي النهاية رد على هذه الافتراءات الدكتور منيع عبد الحليم محمود، عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر[٢٥].

إذاً، نرى أن محاولات تشويه القرآن الكريم وتشويه الإسلام وشخصية النبي محمد ﷺ مستمرة لا تتوقف.

لكن الأدهى والأمر، أن الهجمة تتسع لتصل حد الطلب من بعض الدول العربية إلغاء مادة التربية الإسلامية من المدارس. أو تعديل مناهج مادة التاريخ التي تتعرض لليهود وغدرهم وخيانتهم وقتلهم الأنبياء وسوء معاملاتهم وخبائث نفسياتهم، ثم تدعو إلى إلغاء مفهوم الجهاد وحجب آياته عن الطلبة وعدم شرحها والتعليق عليها.

كل ذلك يأتي في سياق خلق حالة نفسية لدى المواطن المسلم تجعل لديه قابلية للاستعمار حتى تستطيع قوى الشر السيطرة على أرض الأمة وعقول أبنائها ونفوسهم.

وقد تبين فيما بعد أن وراء هذه التشويهات الموساد الصهيوني الذي ينتحل أفراده اسم أقباط المهجر ويشعلون حرب الإنترنت لتزوير القرآن. وقد وصفوا النبي ﷺ بأنه (بلاي بوي) وذئب نساء تزوج 45 امرأة في وقت واحد. وأوردوا مقالات ضد زوجات النبي واتهموا ـ بحقارة ـ السيدة عائشة أم المؤمنين بأنها أرضعت كل الصحابة.

وبعد أن كشف موقع الإنترنت الذي يبث هذه التشويهات تبين أن اسمه (بال توك) وهو مملوك لجماعة من يهود أمريكا. وتبين أن هذا الموقع ودوره الخطير يقف وراءه الموساد.

وبعد أن استطاع بعض العرب في أمريكا اختراق مركز هذا الموقع تبين أنه يضم أعداداً من الذين جندهم الموساد وتحت أسماء مستعارة وهي: هانتر ومينا، وإيزي، ودوث كوم، وجورج سيدني. وهؤلاء هم أول من قاموا بإنشاء هذا المركز.

وقد زاد عددهم كثيراً خلال فترة وجيزة، وقام بعض المخترقين بعملية قرصنة على جهاز جورج سيدني فاتضح أنه من الموساد ويعيش في مدينة سيدني باستراليا وقام بعملية تجنيد هذه الجماعة.

وهذه الأسماء هي الأسماء الحركية أو المستخدمة لهم، فأما هانتر فهو مصري يدعى سامح يعيش في لندن ويعمل سائق (تاكسي)، ومينا يعيش في أمريكا، وواضح أنه لا يعمل فهو يكاد لا يغادر الموقع ليلاً أو نهاراً. ودوث كوم أيضاً في أمريكا ويقول إنه قس في كنيسة، وأيضاً إيزي الذي يقول إنه قس في كنيسة في صعيد مصر.

وقد وصل الأمر إلى أقصى المراحل خطورة بتأليف سور قرآنية بشكل يسيء للإسلام حتى يثبتوا أنه لا وجود لما يسمى بالدين الإسلامي. وأن القرآن مجرد كلمات من شعر مؤلفه ورقة بن نوفل.

ووقف العرب وخاصة المصريون في وجه هذا الموقع وأصحابه، والملفت للنظر أن مجموعة من أقباط مصر الشرفاء والوطنيين هم أكثر من تصدى لهذه المجموعة المارقة. واخترقوا الموقع مكتشفين أن هؤلاء العملاء المأجورين ينقسمون إلى مجموعتين: الأولى مجموعة من اليهود الذين يجيدون اللغة العربية ويعيشون داخل الكيان الإسرائيلي ويعملون لدى الموساد ويزعمون أنهم مصريون مسيحيون.

والمجموعة الثانية، هم فعلاً مجموعة ممن يسمون أنفسهم بأقباط مصر في المهجر يعيشون في أمريكا وقام الموساد بشراء ضمائرهم أو استغلوا جهلهم للعب هذا الدور القذر. وكانت بداية تدريبهم في لبنان داخل صفوف جيش أنطوان لحد العميل لإسرائيل. وسموا أنفسهم حينها بجمعية جنود الصليب ويترأسهم شخص اسمه رفيق اسكندر وبعد تدريبهم تم تسفيرهم إلى أمريكا. وتم تشغيل بعضهم في بعض الوظائف الحقيرة، والأغلبية منهم عاطلون عن العمل ولا دور لهم سوى هذا الدور الحقير المنحط على هذا الموقع على الإنترنت(١١).

كيف طرح القرآن الكريم عدم التوافق بين الأمة والقابلية للاستعمار:

منذ الخلق الأول للإنسان العاقل طرح القرآن الكريم مفهوم الاستخلاف في الأرض فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة: 30).

فالفكرة المستوحاة من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى سيجعل في الأرض خليفة، وطبيعي أن هذا الخليفة مكلف بالإعمار ونشر عقيدة التوحيد، وإقامة العلاقات الإنسانية.

فتحديد المهمة التي من شأنها خلق إنسان مستخلف على الأرض ترتبط مباشرة بالأمر الإلهي الأولي الخاص وليس بأي أمر آخر. ونعتقد أن هذا الأمر الأولي يستفرد به الإنسان، ويعزز شخصيته، ويبرز أن طبيعته غير قابلة للاستعمار أو استعلاء مخلوق آخر عليه. فهو المخلوق الأول وعلاقته الجوهرية مرتبطة بخالقه مباشرة، لكن الاستخلاف يأخذ منحى آخر فيما بعد، أي بعد أن تكاثرت الأمم واختلفت الألسنة والأعراق.

يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة النور: 55). والاستخلاف يرتبط بترتيب الله سبحانه وليس بترتيب بشري مادي.

يقول تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ (سورة الأنعام: 133).

ويقول تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ﴾ (سورة هود: 57).

فمهمة المستخلف واضحة، وهي تنحصر في دائرة الاستقامة والخير والبناء المكرس لخدمة الإنسان. وهذه المهمة لا تتوافق مع القابلية للاستعمار. إن كان على المستوى الفردي أو كان ذلك على المستوى الجمعي لأن القابلية للاستعمار تلغي الدور الإنساني المكرس في إعمار الأرض وخدمة الإنسانية. وهي تعطيل لقدرات فعل الخير. واستلاب للفاعلية البشرية في حركة الحياة.

الدفاع عن مبدأ الاستخلاف:

وطالما أن الإنسان الصالح والمكلف إلهياً بالبناء الحضاري والقيمي الإنساني وقع في دائرة التكليف فمن الطبيعي أن يتعرض لهجوم القوى الشيطانية الرافضة لاستخلافه. فكما رفض إبليس الاعتراف بقيمة الإنسان الأول فإن المنهج الشيطاني يظل في دائرة الرفض والتناقض والتضاد لمنهج الصلاح والبناء.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ

﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: 11 ـ 17).

إذاً، فالصراع قائم مستمر بين منهجين، منهج الرحمن، ومنهج الشيطان. ولهذا نجد القرآن الكريم يحدد الأدوات التي يستطيع بها الإنسان الصالح أن يواجه قوى التدمير الحضاري. بل إن القرآن الكريم يقنن هذه الأدوات، ويضع لها شروطها وأزمانها وأماكنها وأشخاصها، وحتى لا يكون تناقض المستخلف مع القابلية للاستعمار تناقضاً غير متوازن فقد كانت هذه الأدوات منهجاً علمياً للدفاع عن هذه المهمة الكبرى.

وقد تراوحت الأدوات بين الحوار العقلي وبين القتال، وما بينهما، تتسع الأدوات وتكثر وتتعدد الأساليب والشخصيات. فمنهج الأنبياء في الدعوة واحد. لكنه يتطور تصاعدياً من مرحلة لأخرى، ومن وضع إلى وضع، ومن نبي إلى نبي. ومن مكان جغرافي لمكان آخر. وهذه الأدوات تستخدمها أكثر من أمة وأكثر من جهة، لكن استخدامها قد يختلف من أمة لأخرى ومن فئة إلى فئة.

ولهذا نتوقف أمام المنهج الإسلامي لنرى طبيعة هذه الأدوات التي يتحقق بسبب وجودها الرفض القاطع لمفهوم القابلية للاستعمار.

ـ الحوار العقلي:

لعل من أبرز الأدوات التي تميزت بها حركية الإسلام أداة الحوار العقلي مع الأمم والشعوب ومع الذات. وليس معنى الحوار العقلي الاستسلام لإرادة الطرف الآخر، فمساحة الحوار واسعة لا حدود لها. لكن الإسلام أوضح أن هذا الحوار هو حوار الند بالند وليس حوار الضعيف مع القوي. حوار صاحب الحجة العقلية المقنعة مع المتحاورين.

لقد لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحوار المباشر، الذي ينطلق من طرح الفكرة في ساحات الصراع من أجل إشغال للساحات بعلامات استفهام يطرحها الإسلام مع

أجوبتها ليوفر على المتصارعين جهد البحث عن سؤال قد لا يجدونه جاهزاً، وقد يواجهون صعوبة في العثور عليه.

(لقد وقف الإسلام بوجه كل التحديات ليرد التحدي بمثله من موقع الرغبة في الوصول إلى الحق وإفساح المجال للأفكار بأن يلتقي بمفاهيمه. لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل حب الغلبة)[12].

وقد اتصف الجدال في القرآن الكريم وفي الإسلام بشكل عام بامتلاكه قانون الحجة. فأمة الإسلام مطلوب منها الرفض للموقف الضعيف أمام الذين يحاورون خاصة إذا حاوروا من خلال حجج ضد الأمة ومبادئها الأساسية.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم حض على الحوار، لكنه ميز بين موقفين يفهمهما المسلم، موقف يتعلق بالجدال مع من يحترم الرأي الآخر، وموقف يتعلق بالجدال مع صنف الظالمين فالظالمون لا جدال معهم بالتي هي أحسن، لأنهم يقفون منذ البدء موقفاً ظالماً مستكبراً. وقد فتح الإسلام أبواباً كثيرة مع من لا يحترمون الرأي الآخر، ويظلمون وهم معاندون معادون من خلال موقف مسبق.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ (العنكبوت: 46).

- ومن الأدوات الأخرى التي أقرها الإسلام، المواثيق والمعاهدات التي تضمن للأمة حريتها وكرامتها، وفي الوقت نفسه تضمن حرية الآخرين وكرامتهم وأمنهم. ولعل الوثيقة التي أصدرها رسول الله ﷺ عند هجرته إلى المدينة (يثرب) حددت ملامح الأمة وعلاقاتها السلمية والعسكرية مع الآخرين.

وقد جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهدوا معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس).

إلى أن جاء فيها: (وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم

وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وأن بطانة يهود كأنفسهم. وأن على اليهود نفقتهم. وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والبر دون الإثم.. إلخ)[13].

وقد حددت هذه الوثيقة عدة أمور هامة: فالنبي عليه الصلاة والسلام، صنف نفسه ضمن فئة المؤمنين والمسلمين، ولم يطلق على نفسه أي لقب من ألقاب الزعامة الدنيوية، فلا هو بملك أو رئيس، إنما هو نبي الله وواحد من أمة مسلمة مؤمنة تتعاقد وتتعاهد مع اليهود وغيرهم. فهذا التصنيف النبوي الشريف لا يرتبط بأي شعور بالاستعلاء أو التميز. إضافة لأهم أمر وهو المتعلق بالحفاظ على شخصية الأمة وهويتها دون أي تنازل عن حقها، مع مراعاة حصول الأطراف الأخرى على كامل حقوقهم.

ولننظر مرة أخرى في وقت آخر ووثيقة أخرى وهي عهدة من رسول الله ﷺ لأهل نجران وجاء فيها:

(ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا نغير أسقفاً من أساقفتهم ولا راهباً من رهبانهم، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصف (العدل) غير ظالمين ولا مظلومين)[14].

فقد ضمنت هذه الوثيقة كل حقوق الآخرين علماً أن المسلمين كانوا قادرين على تلك البلاد، قادرين على حكمها كونها جزءاً من أرض عربية.

ولا تقل العهدة العمرية أهمية عن هذه المواثيق والعهود. تلك التي جرت مع أسقف القدس عندما فتحها المسلمون وأبى أسقفها أن لا يسلّم مفاتيحها إلا للخليفة عمر.

إن المنطلق الأساسي في هذه المواثيق والعهود الحفاظ على العلاقات الإنسانية بأرقى صورها. لكنها أيضاً تنبع من موقف الواثق من نفسه، القادر على استخدام أساليب كثيرة لتحقيق دعوته وليثبت أن جوهر عقيدة الأمة ينبع من عدم الخنوع واستساغة الذل والقبول بالمستكبرين أسياداً دون حق شرعي ودون أي وجه قانوني أو نفسي أو طبيعي.

القابلية للاستعمار قبول بالموت الحضاري:

لا نريد أن نعيد على الأسماع ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية لأن ما قُدم لا يجهله أحد.

ولكننا نرى أن الإنسان الذي نبت من هذه الأرض يعرف قبل غيره أن الحضارة مجموعة من القيم الفكرية والمعنوية بشكل عام، ومجموعة لا تحصى من الإبداعات المادية الشمولية. والحضارة التي بدأت معالم تكوينها منذ آلاف السنين في الأرض العربية، خلفت وحتى هذه الأيام شواهد حضارية غاية في الأهمية. فهي التي صنعت للإنسانية أبجدية اللغة، بعد أن ظلت الشعوب القديمة لا تعرف كيف تختزل لغة التخاطب والكتابة بشتى أصنافها وأجزائها الأدبية والدينية والسياسية. وهي التي قدمت نماذج حضارية لبناء المدن. وجلب المياه والأسوار وآلات صناعة النسيج وعلوم الرياضيات والبصريات وغيرها.

ولو ذهبنا بعيداً في حضارات المنطقة القديمة، نرى كم الفارق الحضاري بين ما قدمه الإنسان العربي، وما قدمته شعوب أوروبا في تلك العصور. ولعل الفارق الأكبر هو إنسانية هذه الحضارة العربية. وعالمية عقائدها.

لقد أوصلت شعوب المنطقة العربية إبداعاتها الإنسانية إلى كافة أقطار العالم القديم، وما تزال شاهدة على عالميتها وإنسانيتها. وتفاعلها الأممي مع شعوب الأرض.

إن الدافع الفكري النفسي لبناء حضارة إنسانية يرفض الاستعباد والاستعلاء ويرفض الاستعمار. والقابلية للاستعمار تتناقض كلياً مع ذلك الدافع الحافز لبناء الحضارة.

والواقع فإن صنّاع الحضارة يرون في الاستعمار أياً كان شكله مدمراً للحضارة مهدماً للإبداع الوطني الذي يعتبر بكل المقاييس إنجاز أمة بأكملها. فكيف تكون لدى الأمة قابلية للاستعمار المهدم المدمر لإنجازاتها الحضارية؟

ربما ادعى بعضهم أن بعض أشكال الاستعمار تنقل الشعوب المستعمرة من التخلف إلى الحضارة. ويضربون لذلك أمثلة من أفريقيا وبعض دول جنوب آسيا

وأستراليا أو أميركا. محاولين بذلك خداع الإنسانية وتضليلها. وهم يدركون أن هذه الأمثلة التي يضربونها ما هي إلا تلفيقة تطمس الحقيقة أو تحاول قلبها. فالهنود الحمر في أميركا ما كانوا ليبادوا من قبل الأنجلو ساكسون لولا دفاعهم المستميت عن حضاراتهم التي ما تزال الشواهد المادية تدل عليها. أليست هناك حضارة تسمى المايا وأخرى تسمى الأزتيك وغيرهما؟ وكذا الأمر في أفريقيا خاصة الغربية منها حيث عاشت حضارات إمبراطوريات إسلامية أسست لحضارة عقيدية وثقافية ما تزال المخطوطات تؤكدها وتشهد لها في مالي وغانا ونيجيريا والسنغال وغيرها، إن الاستعمار لم يجلب أي سمة حضارية لتلك الشعوب إلا إذا اعتبرت الألبسة والقبعات الإفرنجية شكلاً من أشكال حضارة الغرب.

فإذا نظرنا بموضوعية إلى الهجمة الأميركية الغربية الشرسة على العراق أدركنا أن الاستعمار يدمر منجزات الأمة ويهدم الإبداع الوطني. فكيف يقبل هذا الشعب بهذا التدمير والتهديد وهو الذي تمتد حضارته إلى آلاف السنين؟.

فما جرى ويجري ليس إلا حرقاً لهوية الأمة الحضارية، وليس إلا استهتاراً بالشخصية العربية الإسلامية.

وما يظن أحدنا أن مثل هذه الأمة تميل إلى تقبل الاستعمار أو لديها القابلية للاستعمار. لقد تراكمت صفحات التاريخ العربي الإسلامي، وظلت أفكار الأمة وإبداعاتها الحضارية حاضرة في الذهن، وفي العلوم، والثقافات الإنسانية، ولكن الذي تسامحت به الأمة هو الرد المناسب على ذلك العداء اليهودي الصليبي التاريخي الذي ظل دوره الإفسادي يتصاعد. وتحريضه على العروبة والإسلام يتغلغل حتى وصل في عصرنا إلى دفع أميركا والعالم الصليبي للهجوم المباشر على أرض العرب والمسلمين ومحاولة تدمير حضارتهم.

يقول بني آلون، وزير سياحة الكيان الصهيوني:

(من الواضح أن الإسلام في طريقه إلى الزوال فما نشاهده اليوم ليس انتفاضة إيمان قوية بل انطفاء جذوة الإسلام، أما كيف سيزول؟ بكل بساطة بقيام حرب مسيحية

صليبية ضد الإسلام في غضون بضع سنوات ستكون الحدث الأهم في هذه الألفية، وطبعاً سنواجه مشكلة كبرى حين لا يبقى على الساحة سوى الديانتين الكبيرتين اليهودية والمسيحية غير أن ذلك ما زال متروكاً للمستقبل"[٦٥].

فإذا كان الفكر الاستعماري يرى أن الإسلام وكذلك ثقافته سيزولان جراء إشعال حرب صليبية عليه من قبل الغرب، فإن النقلة النوعية الحقيقية ستكون برفض الموت الحضاري ورفض الموت العقيدي. ولعل أول ما يمكن أن يتجلى في هذا الرفض إبعاد ما يسمى القابلية للاستعمار عن العقل العربي والنفس العربية والإسلامية وتكوينها التاريخي الاجتماعي السياسي.

فالقابلية للاستعمار هي الخطوة الأولى لزوال الحضارة العربية الإسلامية من العقول والنفوس إضافة لزوالها أو إزالتها من الشواهد المادية المتوزعة في كل مكان من الأرض. لذا فإن الغزو الأميركي للعراق أبدى كل توحشه حين هاجم المتاحف وسرق الآثار الحضارية ليزيلها من الواقع كشواهد حضارية للأمة.

وما هي إلا خطوة عملية نحو أكبر إجراء جراحي لغسل الذاكرة والعقول. ومن ثم دفع الأمة للتنكر لتاريخها وحضارتها، بل دفعها للتهجم الشنيع على كل منجزاتها الحضارية الإنسانية عبر التاريخ.